التراث الإنساني
NYROUF

العلم والدين

لاميل بوترو

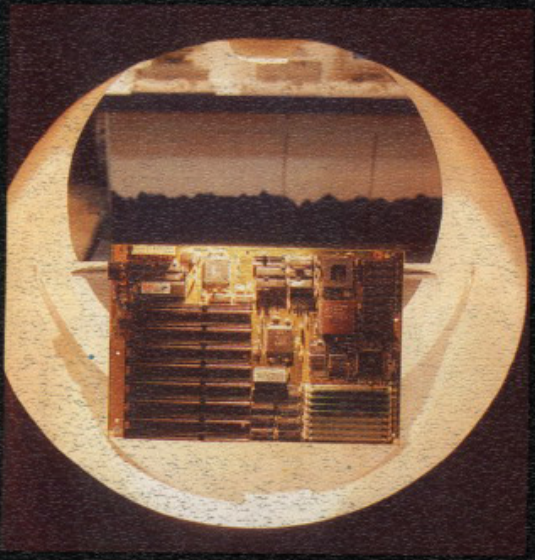

الهيئة المصرية العامة للكتاب

د. أحمد فؤاد الأهوانى

مهرجان القراءة للجميع ٩٤

(مكتبة الأسرة)

تراث الإنسانية

الجهات المشتركة :

جمعية الرعاية المتكاملة

وزارة الثقافة (هيئة الكتاب)

الانجاز الطباعى والفنى	وزارة الإعلام
محمود الهندى	وزارة التعليم
مراد نسيم	وزارة الحكم المحلى
احمد صنيحة	المجلس الأعلى للشباب والرياضة

المشرف العام

د . سمير سرحان

العلم والدين
لاميل بترو
د . احمد فؤاد الأهوانى

المؤلف

اتيين اميل ماري بوترو (Etienne Emile Marie Boutroux) ولد في ٢٨ يولية ١٨٤٥ في مونروج Montrouge بمقاطعة السين على مقربة من باريس. وتوفى سنة ١٩٢١ في باريس عن ٧٦ عاما ، قضى معظمها في النصف الثاني من القرن التاسع عشر .

درس في ليسيه هنري الرابع ، والتحق سنة ١٨٦٥ بمدرسة المعلمين العليا . نال اجازة الأجريجاسيون سنة ١٨٦٨ ، ثم أرسل في بعثة دراسية الى هيدلبرج لمدة عامين حضر فيهما على الأستاذ ادوارد زللر Zeller صاحب الكتاب المعروف في تاريخ الفلسفة اليونانية . وتولى اثر عودته تدريس الفلسفة بليسيه « كاين » Caen .

أعد للحصول على الدكتوراه رسالتين ، احداهما باللغة اللاتينية كما كانت تقضى اللوائح حينذاك ، وعنوان هذه الرسالة باللاتينية De Veritabus alternis apud Cartesium أى « الحقائق الازلية عند ديكارت » . وقد نقلها الأستاذ كانجهيم الى الفرنسية وقدم لها عند طبعها الأستاذ برنشنيج .

ورسالته الثانية ـ وهى الأهم ـ بعنوان : « فى أن قوانين الطبيعة حادثة » (١) De la Contingence des Lois de la Nature . وكانت مناقشة هذه الرسالة سنة ١٨٧٤ حدثا فكريا استقبله الباحثون فى أوربا بترحاب عظيم ، وأصبحت الرسالة بعد نشرها فى العام نفسه نقطة تحول فى تاريخ الفلسفة العامة . ومنذ ذلك الحين أمسى برونو فيلسوفا ومعلما . فهو فيلسوف بهذه الرسالة التى حددت معالم فكره الى آخر حياته . وهو معلم أو أستاذ فلسفة شغل مناصب التدريس بالجامعات الفرنسية ، وطلب على يديه كثيرون ممن أصبحوا فيما بعد فلاسفة مشهورين ، مثل برجسون وبلوندل .

(١) يقال الحادث فى مقابل القديم والازلى ، والممكن فى مقابل الواجب والضرورى . والمقصود ان قوانين الطبيعة ليست ازلية ، وانما هى حادثة ، أو ممكنة . ويقال الحدوث فى المجال الميتافيزيقى والامكان فى المجال المنطقى ، ولذلك ترجمنا المصطلح بالحدوث . وسنستخدم الامكان أو الحدوث بحسب المقام .

عهد اليه بتدريس الفلسفة بكلية الآداب فى مونبلييه عقب حصوله على الدكتوراه ، وفى سنة ١٨٧٦ انتقل الى نانسى ، ثم عاد الى باريس سنة ١٨٧٧ أستاذا لتاريخ الفلسفة بمدرسة المعلمين العليا ، خلفا للأستاذ «فوييه» مؤرخ الفلسفة المعروف . وفى سنة ١٨٨٥ كلف بتدريس الفلسفة الألمانية بكلية الآداب بباريس ، وأضحى سنة ١٨٨٨ أستاذا للفلسفة الحديثة فى هذه الكلية خلفا للأستاذ « جانيه » . وظل منذ ذلك الحين يشغل هذا المنصب ، يلهم تلاميذه ، ويأخذ بيدهم فى الطريق الفلسفى ، ويترجم ويؤلف .

عين عضوا بالأكاديمية الفرنسية للعلوم الانسانية ١٨٩٨ ، وعضوا بالأكاديمية ١٩١٢ .

- ٢ -

مؤلفاته

تابع الى جانب رسالتيه فى الدكتوراه التأليف والترجمة طوال حياته . ويبدو أنه رأى فى شبابه فرنسا فى حاجة الى نقل المؤلفات الأجنبية الى اللغة الفرنسية ، فبدأ بترجمة زللر عن فلسفة الاغريق من الألمانية الى الفرنسية ، أصدر الجزء الأول سنة ١٨٧٧ ، والثانى ١٨٨٣ ، وترجمة الأجزاء الباقية تحت اشرافه بواسطة تلاميذه .

نقل كتاب ليبنتز المشهور باسم « المونادلوجيا » ، مع دراسة لفلسفة ليبنتز صدرت عام ١٨٨٠ . ثم ترجم سنة ١٨٨٦ « المقالات الجديدة لليبنتز » مع مقدمة طويلة درس فيها نظرية ليبنتز في المعرفة .

وله مقالة مشهورة عن ارسطو في دائرة المعارف الفرنسية الكبرى والتي صدرت سنة ١٨٨٦ . ومن الطبيعي أن يعنى بوترو بالفلسفة اليونانية التي تنقى أصولها على زللر ، وترجم كما رأينا كتابه عنها . وكانت معرفته باللغة اليونانية وربما كتبه فلاسفة اليونان باليونانية معرفة وثيقة ، وكان يتمثل بنصوص يونانية يوردها كما جاءت في أصلها ، ويبنيها في كتبه . وله دراسة نافذة عن سقراط بعنوان : « سقراط مؤسس علم الأخلاق » ، وقد نشر هذا البحث فيما بعد مع بحوث أخرى في كتاب بعنوان : « دراسات في تاريخ الفلسفة » . كما نشرت له مجموعة أخرى من البحوث بعنوان : دراسات جديدة في تاريخ الفلسفة » .

ومن أشهر دراساته بحثه عن الفيلسوف الألماني كانط ، وهو ثمرة محاضراته بالسربون في العام الدراسي ١٨٩٦ ـ ١٨٩٧ ، وقد نشر أكثر من مرة . ومعظم كتبه طبعت مرات كثيرة . ثم انه كان ذا عناية خاصة بالفيلسوف الفرنسي بسكال ، وكتب عنه مؤلفا قيما سنة ١٩٠٠ . وبعد كتابه عن وليم جيمس والذي صدر سنة ١٩١١ دراسة عميقة للفيلسوف الأمريكي .

وله فى الفلسفة العامة عدة كتب ومقالات وبحوث ، منها كتاب بعنوان « فكرة القانون الطبيعى فى العلم والفلسفة » ، وكتاب : « الطبيعة والروح » .

ومن كتبه التى نقلت الى الانجليزية رسالته فى الدكتوراه « فى أن قوانين الطبيعة حادثة » ، وكتاب آخر اسمه « الفلسفة والحرب » .

وله عدة بحوث صغيرة ، ومقدمات لكتب ، وفصول فى كتب صدرت بالاشتراك مع غيره من المؤلفين . وقد جمعت احدى دور النشر بعض البحوث التى تدور حول موضوع واحد ، واصدرتها فى كتاب ، مثل كتابه : « الأخلاق والدين » ، والفصول التى يحتوى هذا الكتاب عليها عبارة عن كلمات أو محاضرات القيت فى جمعيات ، أو مقالات كتبت فيما بين سنة ١٩٠٧ ، ١٩١٨ ، ويقول الناشر ان بوترو نفسه راجعها قبل نشرها . ولكن الأمر فى كتاب « العلم والدين » مختلف ، لأنه مؤلف من أوله الى آخره موضوعا واحدا متناسقا بقصد التاليف . ويعتبر كتاب « العلم والدين » بعد رسالته فى الدكتوراه أشهر كتبه ، له فيه فلسفة خاصة ، صدر فى طبعته الأولى سنة ١٩٠٨ .

المذهب

اجتاز الفكر البشرى مرحلة طويلة من النظر انتهى فيها الى حل للمشكلة التى واجهته واطمأنت نفسه وعقله لذلك الحل ورأى فيه راحة يستقر عندها . ونحن نعنى بالمشكلة المحيرة مسألة التغير الظاهر فى الموجودات ، ونعنى بالحل « ثبات » الصور التى يندرج تحتها الموجود وهو ثبات راجع فى الأغلب الى العقل البشرى .

ثم رفع الفلاسفة من لدن أفلاطون وأرسطو من شأن الصور الثابتة على الموجودات المتغيرة ، وفصلوا بين العقل والطبيعة ، بين النظر والعمل ، ورفعوا من قيمة العقل على العمل والتجربة والحس . وارتاح الفلاسفة الى ذلك الحل السعيد الذى رد الكثرة الى الوحدة ، والتغير الى الثبات ، والممكن الى الضرورى ثم تسربت هذه النظرية من اليونانيين الى العصر الوسيط الاسلامى والمسيحى على السواء ، وامتزجت الآراء الفلسفية بالتعاليم الدينية واتفقتا على هذا المبدأ ، وانتقل ثبات الصور من الطبيعة أو العقل ، الى العلم الالهى والقدرة الالهية .

وعندما قامت النهضة الأوربية وتجدد شباب الفن والأدب والعلم ، لم تستطع أن تتخلص الفلسفة الحديثة من

الرواسب اليونانية والمسيحية وبخاصة في فرنسا فكان ديكارت ، وهو أبو الفلسفة الحديثة ، متأثرا بالتعاليم الدينية الموروثة من العصر الوسيط ، وسار على نهجه أصحاب مدرسته وغير مدرسته ، مثل مالبرانش ، بسكال، وليبنتز ، وباركلي . بل ان كانط نفسه الذى قيل انه أحدث فى الفلسفة ثورة شبيهة بما فعله كوبرنيق في علم الفلك ، ظل محتفظا بهذه التفرقة بين الصور الثابتة وبين تجارب الحس المتغيرة ، وكل ما فى الأمر أنه سمى الصورة الثابتة أولية وموجودة فى العقل نفسه يفرضها على الأشياء فرضا ، وبذلك يصبح العلم الذى يمتاز بالضرورة والكلية ممكنا .

هل حقا قوانين الطبيعة تمتاز بالضرورة ؟ وان كانت كذلك فما مصدر هذه الضرورة ؟ أم أن الضرورة وهم ومظهر خادع ، وأن الميكانيكية وما تقوم عليه من قوانين تجعلنا ندرك باطلا ضربا من الجبرية الكلية .. هذا هو خلاصة مذهب « بوترو » فى رسالته التى زعزعت أركان الضرورة ، وأفسحت المجال للامكان منطقيا ، وللحدوث ميتافيزيقيا ، وكان لها صدى أى صدى فى الفكر الأوربى المعاصر .

ولقد اشتهر فى تاريخ الفلسفة أن الميتافيزيقيا ، انما نشأت من البهجة التى يحس بها المرء ضد النظر الى الأشياء المحسوسة . هكذا قال أرسطو فى استهلال كتابه

المعروف بالميتافيزيقا . ومن نقطة البداية هذه قامت التفرقة بين « النظر » و « العمل » مع سمو الأول على الثاني . ولكن بوترو يشق طريقه الى الميتافيزيقا على نحو آخر ، فالانسان في أول أمره وقد استغرق كليـة في احساساته باللـذة أو الألم لا يفكر في العالم الخارجي ، بل انه ليجهل وجود هذا العالم ثم على مر الزمن يميز في هذه الاحساسات ذاتها عنصرين أحدهما بسيط وهو شعوره بذاته ، والآخر أكثر تعقيدا وتغييرا وهو تمثله للأشياء الخارجية . وعندئـذ ينشأ في نفسه الحاجة الى « المعرفة » . وأولى درجات هذه المعرفة ادراكه للعالم الخارجي المعطى له حسيا ، وهي أول مرحلة من مراحل العلم . ان العالم بحسب الحواس عبارة عن وقائـع متعددة لا يحصرهـا عـد ، ويستطيع المرء ان يشاهدهـا ، ويحللها ، ويصفها ، وليس العلم الا هذا الوصف . ولكنه لا يدري شيئا عن نظام ثابت بين الوقائع ، لأن الحواس لا تطلعـه على شيء من هذا النظام . انـه لا يـرى سوى المصادفـة والاتفـاق أو القضـاء والقـدر ، أو ارادات وأهواء تسيطر على الكون .

غير أن الذهن في ملاحظته للوقائع يلحظ بينها روابط دائمة ، ويرى الذهن أن الطبيعة لا تتألف من أشياء منعزلة بل من ظواهر يرتبط بعضها ببعضها الآخر . ثم يقرر الذهن أن تجاور الظواهر بحسب ما تعطيه الحواس ليس دليلا على ارتباطها الفعال ، فيطمع أن يرتبها ترتيبا يقوم

على اعتماد بعضها على بعض لا بحسب الترتيب الظاهرى ٠ ومن هنا كان العلم الوصفى البحت غير كاف بل غير دقيق لأنه لا يبين العلاقات بين الأشياء ، فكان لابد من اضافة المعرفة « التفسيرية » الى جانب المعرفة الوصفية ٠ واذا كان العلم يمر بمرحلتين هما الوصف ثم التفسير ، وكانت الحواس هى التى تنهض بعبء الوصف فان الذهن يحتاج الى ملكة أخرى هى العقل الذى يؤول ويصنف ويفسر معطيات الحواس فالعقل الذى يرتفع بنفسه على الحس يزعم أنه هو وحده القادر على اقامة العلم بالعالم فيضع نظاما محكما مترابطا واحدا كاملا ٠ غير أن هذا النظام لا يتفق تماما مع الواقع ٠ ولا قيمة لنظام من الأفكار لا يفسر نظام الظواهر ٠ من أجل ذلك نزل العقل من عليائه ليتعاون مع الحواس فى معرفة العالم وكان من نصيب الحواس أن تلاحظ الوقائع ، ومن نصيب العقل وضع القوانين ، وبذلك استطاع الانسان أن يجمع بين الكثرة والوحدة ، بين الامكان والضرورة ، بين التغير والثبات ، لأن القوانين هى الروابط الضرورية الثابتة بين الأشياء الحادثة المتغيرة ٠ القانون يفسر الظواهر والظواهر تحقق القوانين ٠ واطمأن الانسان الى هذا الحل السعيد ٠ ولكن أحقا القوانين ثابتة ضرورية ؟ ألا يفضى هذا المذهب الى جبرية مقنعة تنعدم فيها حرية الموجود ، حتى الموجود الذى يمتاز بالحرية وهو الانسان ؟ ٠

ان الموجود المعطى بالفعل ليس نتيجة ضرورية انه صورة « حادثة » فهل تكون طبيعته حادثة كذلك ؟ ألا يخضع في نموه الخاص به لقانون ثابت ؟ الا يحمل في طياته هذه الضرورة التي تحرر بها من صلته بالممكن ؟

لقد عبر الفلاسفة عن قانون الموجود بصيغ مختلفة ترجع الى معنى واحد ، من مثل ٠٠ « لا يحدث شيء بغير سبب » أو « كل ما يحدث فهو نتيجة متناسبة مع سببها » ، أو « المادة لا تفنى ولا تخلق » ، أو « كمية الموجود تبقى ثابتة » ٠

وهنا يفرق بوترو بين مفهوم القانون ، وبين مفهوم السببية ٠ والجديد عنده تصوره للسببية وهو متصور درج في الفلسفة المعاصرة وأخذ به العلم الحديث ٠ ليس مبدأ السببية مفروضا أوليا لا في الذهن ولا في الأشياء الخارجية ٠ على العكس مفهوم « السبب » هو أنه الشرط أو مجموع الشروط التي تؤدي الى احداث ظاهرة معينة ، وبهذا المفهوم السبب لا يعدو أن يكون هو نفسه من جملة الظواهر ٠ وبذلك نفض بوترو عن « السبب » ما كان يحيطه من مجاهل الميتافيزيقا ٠ وفي الوقت نفسه نفى عنه فكرة الضرورة ، من حيث أن الأحداث المتغيرة تصدر عن شروط متغيرة كذلك ٠

ان تقدم العلم انما أصبح ممكنا لاتخاذه الكم مقياسا ومعيارا ، بعد أن ضرب صفحا عن الكيف ٠ ان الثبات

الموجود فى القوانين يقوم على العلاقات الكمية التى يمكن قياسها • وقد ولد العلم يوم تصور الانسان وجود أسباب ومسببات طبيعية ، أى علاقات ثابتة بين الاشياء الواقعة ، ولم يعد يتساءل عن تلك القوى القلقة على الطبيعة التى تؤدى الى حدوث الاشياء • وأيضا فان القانون الطبيعى ثمرة ملاحظة الكائنات الخارجية ، وليس العكس •

يقول بوترو : « لا ينبغى أن ننسى أن التجربة ذاتها هى التى أوحت الى الذهن البشرى بفكرة السبب الطبيعى • وليست هذه الفكرة مبدأ أوليا يخضع له أحوال الموجود ، بل هى الصورة المجردة للعلاقة بين هذه الأحوال • وليس لنا أن نقول ان طبيعة الاشياء مستمدة من قانون السببية ، اذ ليس هذا القانون فى نظرنا الا أعم تعبير عن العلاقات المستمدة من طبيعة الأشياء الواقعة بحسب ما نلاحظها » (ص ٢٣) وواضح من هذا النص أن القانون لا يفرض فرضا على الأشياء الطبيعية ، بل هو نتيجة لها ، وأن هذه الأشياء اذا تغيرت لا جرم يتغير القانون •

ان الحدوث ثمرة التغير ، والضرورة يلزم عنها الثبات • فاذا صح أن طبيعة العالم هى التغير ، وأدخل ذلك فى الحساب ، ترتب على ذلك الحدوث • وهذه هى القضية التى يحاول بوترو بيانها واثباتها • أوضحها أولا بأن القانون الطبيعى نتيجة للأشياء المتغيرة ، وسيوضحها بأمور أخرى على رأسها الأخذ فى الاعتبار بفكرة « الكيف »

إن صور الموجود حتى الدنيا منها لا تخلو من عنصر كيفي ، وهذا العنصر شرط لا غنى عنه للوجود نفسه ، ويترتب على ذلك عدم تكافؤ السبب والنتيجة ما دمنا قد سلمنا بعنصر الكيف . ثم ان حقيقة التغير لا تقل عن حقيقة الثبات ، بل ان التغير هو المبدأ . ان كل شيء معطى في التجربة يعتمد على الموجود ، والموجود حادث في وجوده ، وفي قانونه . فلا جرم أن يكون كل شيء حادثا .

والموجودات مراتب ، عبارة عن عوالم متراكبة . أو العوالم عالم الضرورة المحض ، ثم عالم الكم بلا كيف وهذا العالم متطابق مع العدم ، ثم عالم الأسباب ، وعالم المعاني (٢) ، وعالم الرياضيات ، وعالم الطبيعة ، وعالم الأحياء ، وأخيرا عالم الفكر .

وفي الموجود مبدآن يقابلان الضرورة والحدوث ، وهما مبدأ البقاء loi de conservations ومبدأ الخلق loi de création وحيث أن الموجود — في العوالم المختلفة السابقة — يسعى الى الكمال ، أو الى الفساد ، فثمة مجال للحدوث . ومن هنا ليس للعبارة المشهورة :

---

(٢) عالم المعنى notion ، أو « التصور » ، يقصد به بوترو مجموع الخصائص المشتركة بين عدد معين من الموجودات . وليس المعنى الكلي عنده مكافئا للفصل أو النوع أو الجنس . بل الذي يكون الجنس هو اتحاد الموجود بالمعنى الكلي (انظر ص ٢٢ من رسالته) .

« لا يفنى شيء ولا يخلق شيء » قيمة مطلقة ، لأن مراتب العوالم وتراكيبها من جهة ، وامكان الكمال فى عدد العوالم ذاتها من جهة أخرى ، لا يؤيدان ذلك القول .

وبمقدار ما نصعد من العالم الأدنى الى العالم الأعلى نرى أن مبدأ البقاء أو الحفظ يتوارى ليفسح المجال لمبدأ الخلق . والقوة الخالقة تنبع من صميم الموجود ، غير أن هذه القوة فى العوالم الدنيا أقل وفى المراتب العليا أعظم . ففى المرحلة الدنيا يبدأ الموجود أن يكون لا محدودا ثم يخضع للضرورة أو الكم الخالص الذى جوهره الوحدة . انها أشد الصور فراغا مما يمكن تصوره ، ولكن هذه الصورة فى تطلعها الى الانفصال من العدم المطلق ليست ثابتة تماما . اذ بفضل مقدار من الحدوث تظهر صورة جديدة للموجود ، هى المادة والمادة امتداد وحركة ، وجوهرها الاتصال . وليس المفصل شيئا آخر سوى التوحيد بين الواحد والكثير .

وكل صورة للموجود فهى تمهيد لصورة أعلى . وكلما صعدنا فى هذا السلم تعددت الأشياء وتكثرت وتنوعت . والموجودات فى صعودها مراتب العوالم تسعة الى « غاية » وهذه الغائية ذاتها تستلزم فى تتابع الظواهر قدرا من « الحديث » . ولو قلنا بانتظام التتابع انتظاما مطلقا ، فكأننا نضحى بنظام أعلى فى سبيل نظام أدنى . ولكن

اخضاع النظام للغائية ، يضع كل مرتبة في موضعها الصحيح .

وثمة طريقان لدراسة الموجودات ، الأول النظر الى طبيعتها في ذاتها ، والثاني تتبع تاريخ الموجودات في فعلها وتحقيقها لذاتها ، وهذا الفعل هو الذي يطلعنا على ماهيتها . واذا نحن بلغنا في سلم الموجودات الانسان ، رأينا أنه هو الذي يخلق صفاته ويحدد مصير نفسه ، لأنه أشد الموجودات « حرية » : كل موجود ضرورى من وجه ، وحر من وجه آخر ، ولكن في الكائنات الدنيا جانب الضرورة يطغى على جانب الحرية ، وليس ثمة موجود له حرية مطلقة سوى موجود واحد ، هو الموجود الأعلى ، هو الله .

الله ليس خالق العالم فقط ، ولكنه يعنى به ، ويسهر على كل جزء من أجزائه وكل صغيرة وكبيرة فيه . الله هو الذي يهب الموجودات وجودها وماهيتها . والطبيعة الانسانية ، التي هي أعلى صور الموجودات ، هي أكثر الأشياء شبها بالطبيعة الالهية . والعوالم الأدنى من الانسان تتشبه بدورها في طبيعتها وفي تقدمها بالصفات الانسانية

ويمكن تشبيه الأشياء في سيرها بسفينة في بحر خضم شديد الأنواء . وليست مهمة ركاب هذه السفينة موقوفة على تجنب العواصف والصخور فقط ، بل لهم

خلف يبغون الوصول اليه . وقد وهب الملاحون « حرية » التصرف لبلوغ هذا الهدف ، ولهم سلطان عظيم على تسيير السفينة . لا ريب أن قدرة هؤلاء الرجال ليست شيئا مذكورا بالقياس الى قدرة البحر المحيط . ولكن قدرتهم التى تمتاز بالذكاء والتنظيم ، تهيىء لهم ان تغير من الظروف الخارجية ، وأن تهيمن عليها لبلوغ شاطىء الأمان

وليس غرض الكائنات الطبيعية مجرد البقاء والمعيشة وسط العقبات المحيطة بها والتلازم مع الظروف الخارجية فقط ، بل لها مثل أعلى تبغى تحقيقه ، هذا المثل هو الاقتراب من الله ، والتشابه ، كل موجود بحسب طاقته ونوعه . والانسان اما أن يستجيب لمصالحه وشهواته فيكون عبدا ، واما أن يصعد الى منبع الحرية فى هذا العالم وهو الله فيستمد من حريته ما يزيد فى تحرره . ومن هذه النقطة التى يتسامى فيها الانسان على نفسه فى سبيل بلوغ الهدف الذى من أجله وجد ، يستطيع الانسان أن يهيمن على طبيعته وعلى طبيعة العالم الذى يعيش فيه .

— ٤ —

الكتاب

تبين من عرض المذهب المستمد من رسالته فى الدكتوراه أن بوترو يؤمن بوجود الله ، وأنه مصدر الخلق

والابداع والنظام والكمال ، وأنه منبع الحرية التى تقتضى الحدوث .

بقى أن يحقق الصلة بين العلم والدين ، بين طريق المعرفة الذى يعتمد على الملاحظة والتجربة ثم فرض الفروض ووضع القوانين اعتمادا على العقل البشرى وبين الدين الذى يصف مظاهر نفسية يحسها المرء فى باطن نفسه ويتصل فيها بالخالق ، ومن هنا كان الدين مختلفا أساسا عن العلم الذى يعتمد على مشاهدة الظواهر الخارجة .

ولم يكن النزاع فى القديم بين العلم والدين ، بل بين الفلسفة والدين . واستمر هذا النزاع زمانا طويلا منذ فجر الفلسفة فى القرن السادس قبل الميلاد حتى نهاية عصر النهضة الأوربية ، أى عند بزوغ نجم العلم الذى أصبح يحتل مكانة متزايدة فى العالم أجمع بسرعة شديدة .

وكان لابد أن يمهد المؤلف لموقف الفلسفة من الدين بمقدمة يسيرة قبل الشروع فى الحديث عن العلم والدين . ثم قسم بعد ذلك الكتاب قسمين رئيسين الأول النزعة الطبيعية والثانى النزعة الروحية ، وفصل تحت كل منهما التيارات المختلفة . ثم انتهى الكتاب بخاتمة تلخص الموضوع كله تكلم تحت النزعة الطبيعية عن أوجست كومت ، وعن هربرت سبنسر ، وعن هيكل وعن الاتجاهين

النفساني والاجتماعي . وتناول بالحديث تحت النزعة الروحية ريتشل ، والذين وحدود العلم ، وفلسفة الفعل وبخاصة البرجماتية ، وأفرد لوليم جيمس فصلا خاصا . وبذلك نرى أنه وصف معظم التيارات الرئيسية في القرن التاسع عشر ، مع الاحاطة والعمق وهو في كل فصل يتبع منهجا يلتزمه يمر بثلاث مراحل الأولى يعرض فيه المذهب ، والثانية يبين قيمته والثالثة ينتقده . ونحسب أن الطريقة المثلى لمعرفة هذا الكتاب هي أن نذكر عن كل فصل من فصوله كلمة قصيرة

(أ) الدين والفلسفة :

لم تكن ديانة فقهاء اليونانيين خاضعة لهيئة منظمة من رجال الكهنوت ، وكان عبارة عن مجموعة من الأساطير والشعائر والطقوس التي يمارسها المواطنون . وقد نشأت الفلسفة اليونانية نفسها من الدين ، ولكنها ما أن استقلت عنه حتى راحت تحاربه ، وتسخر منه ، وتذهب الى أن البشر هم الذين خلقوا الآلهة . كان الدين يؤمن بالضرورة العمياء والقضاء والقدر ، وجاءت الفلسفة فآمنت بالعقل البشري ورفعت من شأنه . وقد حل هذا العقل المتسامي محل الآلهة ، وأصبح عند أفلاطون ، وعند أرسطو المحرك الذي لا يتحرك ، وعند الرواقيين زيوس . وقد سلم الفلاسفة بالديانات الموروثة وما فيها من اعتقادات خاصة

بالوهية السماء والأجرام السماوية . وأول الفلاسفة الآلهة الثانوية باعتبار أنها متوسطات بين العالم الأدنى وبين الاله ، وذهبوا الى أنها رموز للقوى الالهية تتجلى فى تعدد العناصر . ولما ظهر أفلوطين فى القرن الثالث بعد الميلاد ارتفع بالاله فوق العقل ، ونادى بضرب من وحدة الوجود يتدرج فى سلم من الأعلى الى الأدنى ، ورأى فى الصلوات والقرابين وعبادة الصور والسحر ألوانا من الرموز تتوسط بين المحسوس والمعقول ، وذهب الى أنها تلعب دورا ضروريا فى حياة الانسان ، اذ يشارك فى الحقيقة ، وتقرب المرء من المبدأ الأول .

ولما ظهرت المسيحية اضطرت الى اصطناع الفلسفة اليونانية لمحاربة الوثنية ، فقدمت المسيحية من جانبها الايمان بالوحى السماوى ، والاحساس بسوس الانسان وحرمانه ، والايمان بالله المحبة الذى تجسد مسيحا لخلاص البشر . وقدمت الفلسفة الايمان بالعقل والحجة المنطقية . وبذلك تم الاتفاق بين الدين والفلسفة فى العصر الوسيط ، وانتهى الى ما يسمى بالفلسفة المدرسية ، التى أخضعت الدين للفلسفة . وفى الوقت نفسه ظهرت تيارات صوفية فى العصر الوسيط تعارض الجدل والمنطق بالايمان والمحبة . وذهب هؤلاء المتصوفة أن فى الانسان طريقين ، أحدهما طريق الطهارة يخلص المرء من أدران المادة ، والثانى طريق الاشراق تشارك فيه النفس الأنوار الالهية . ومن هنا

أخذت المسيحية [illegible] بالفلسفة المدرسية وتحاول التخلص منها .

وتميز عصر النهضة بأمرين أساسيين ، الأول قوة النزعة الصوفية التى تحاول الاتصال مباشرة بالله والعمل الشخصى الذى يفضى الى النجاة • والثانى تلك الحركة المعروف بالاصلاح الدينى • التى انبثقت عن البروتستانتية وغيرها من المذاهب الجديدة الحرة • هذه الحرية الدينية شملت كذلك الحرية العلمية التى لجأت الى المشاهدات والتجارب لا الاعتماد على الأوهام والسحر • ولقد كان ما وضعه جاليليو من أسس للعلم التجريبى ارهاصا لما ظهر بعد ذلك على يد بيكون وديكارت • ومن هنا ظهرت مشكلة الصلة بين العلم والدين فى ثوب جديد

ولقد أجاب ديكارت عن هذه الصلة بقوله ان ميدان العلم الطبيعة وأدواته الرياضة والتجربة ، وميدان الدين مصير النفس فى العالم الآخر وهو يعتمد على اعتقادات بسيطة لا صلة لها بدقائق اللاهوت المدرسى • فلا مضايقة بين العلم والدين ولا سلطان لأحدهما على الآخر • وقد رأى ديكارت فى العقل الرابطة التى تجمع بين الانسان والله ، وبين الله والعالم وبذلك وفق بين الطبيعى وبين المعتقدات الدينية • ومن المدرسة الديكارتية العقلية نجد سبينوزا يبدأ من العقل فيرى أنه هو الذى يقرر وجود « الجوهر » الأول وهو الله ، ويستخلص من هذا الجوهر مبدأ القوانين

الكلية فى الطبيعة . أما ليبنتز فعنده أن العلوم تبحث فى علاقة الأشياء من حيث مظاهرها المحسوسة ، على حين يعنى الدين بادراك الحقائق الباطنة ، وذلك التداخل المشترك بين الكائنات ، وتطلع الناس الى الخير . والتمس بسكال شروط المعرفة الانسانية فى الذات الشاعرة لا فى خصائص الموجود ليدرك الحقيقة « برؤية » مباشرة .

وطلعت الفلسفة النقدية على يد « كانط » ببيان حدود المعرفة الانسانية . وذهب صاحبنا الى أن فى العقل من جهة تكوينه ووظيفته جميع الشروط لكل من العلم والدين . فمن العقل نفسه تنشأ افكار الزمان والمكان والدوام والسببية وهى الشروط التى بدونها يصبح العلم مستحيلا . أما العقل العملى فله مسلمات ثلاث لا غنى عنها هى أفكار الله ، والحرية ، والخلود . فالعقل نفسه يكون تارة نظريا وأخرى عمليا بحسب ما يواجهه من معرفة أو سلوك ، فيؤسس العلم من جهة والأخلاق التى ينبع منها الدين من جهة أخرى محققا استقلال كل منهما ، ورابطا بينهما فى الوقت نفسه وقد وضع خلفاء كانط هذه الصلة بشكل أوضح مما نجده عند فشته وهيجل . ويتسع المجال لعرض نظريات الفلاسفة الانجليز والفرنسيين من غير المدرسة الديكارتية ، ولكننا نمضى سريعا مع العلم الذى أخذ يتقدم بسرعة معتمدا على التجربة الموضوعية وحدها ، فشرع يؤمن بمناهجه ويتجاهل الدين ، ولم يعد من الممكن

التوفيق بينهما كما حدث في القديم أو العصر القديم أو الحديث (نقصد بالعصر الحديث فلسفة القرن الثامن عشر) ، بل مضى كل منهما في طريق مستقل مطلق : ميدان العلم العقل ، وميدان الدين القلب ، وبذلك حلت المشكلة في عالم الفكر بكل سهولة ولكن الأمر في الواقع لم يكن كذلك .

(ب) أوجست كونت ودين الانسانية :

كان لابد من حل لمشكلة الصلة بين العلم والدين وكان لابد من مواجهة هذه المشكلة وقد ظهر في القرن التاسع عشر تياران أحدهما طبيعي والآخر روحي وعلى رأس الطبيعيين أوجست كومت (١٧٩٨ — ١٨٥٧) الفيلسوف الفرنسي صاحب المذهب الوضعي . ويقوم مذهبه على سلوك منهج وضعي يسير من العلم الى الدين مارا بالفلسفة الواقعية وهو يقصد بالمذهب الوضعي اشباع الحاجات الواقعية للعقل البشري دون أن يتجاوزها ، وأن الوسيلة لاشباع هذه الحاجات هو المعارف الواقعية أي الواقعة في متناول العقل البشري ، مع ملاحظة هذه المعارف وحاجاتنا الواقعية ، ومن هنا ينشأ مفهومان يستغرقان فكرة الوضعية ، وهما المنفعة والواقع . فالواقع وما يتبعه من منافع يوجدان في العلم ، أما اللاهوت والميتافيزيقا فانهما قطاعان وهميان . وقد طلع كومت بقانون الأحوال

بالدلالة التي يوضح التقدم البشري · ووفقاً لهذا القانون بالحالة اللاهوتية ، ثم بالحالة الميتافيزيقية ، وينتهي بالحالة العلمية · ولقد بلغت الانسانية المرحلة العلمية بعد الأخذ بالمنهج الوضعي .

والانسانية عند أوجست كونت ذات دلالة وضعية ، وليست مجرد لفظة جوفاء . ذلك أن آخر العلوم بعد الرياضيات والطبيعيات هو علم الاجتماع ، وموضوعه دراسة الظواهر الانسانية الجمعية · وفكرة الانسانية هي التضامن بين البشر في الماضي والحاضر والمستقبل ، أي أنها تدل على التتابع في الزمان ، بالاضافة الى دلالتها على مجموع الناس في المكان ·

ولما كانت كل الأديان تؤمن بطبيعتين هما : الله والخلق ، وكان الله — بالمعنى الوضعي — هو الموجود الأول الذي نتصل به عن طريق الحياة فيفيض علينا القدرة على فهم سوابق الأشياء ، وكانت فكرة الخلود هي مشاركة العقل الحق والعقل للموجود الأبدي ، فان الانسانية هي التي تحقق هذين المفهومين ، لا على أن الانسانية تجريد للأفراد ، أو مجموعة أفراد في المكان ، بل انها المستمرة والمتضامنة في الزمان ·

فالانسانية هي هذا الاله ، هي هذا الوجود الذي يسمو بنا عن أنفسنا ، وفي الانسانية يتجلى الديني

ويتألمون ، فيحسون بالمخاوف . ان الانسانية تتألف من الناس الماضين ، ومن الأموات أكثر مما تتألف من الأحياء ، تلك الاموات يعيشون في ذكرى الأجيال الحاضرة • ان هذا الدين دين الانسانية ، ليس سوى السمو الفعال للايثار والمحبة » وهكذا استطاع كومت أن يوفق بين العلم والدين عن طريق الفكرة الانسانية ، اذ أصبح العلم مفضيا الى الدين ، ووجد الدين في الانسانية ضالته التي يقوم بعبادتها دون أن يخرج من عالم الواقع الذي يدور العلم فيه •

(هـ) سبنسر وما لا يمكن معرفته :

جوهر فلسفة هربرت سبنسر (١٨٢٠ ـ ١٩٠٣) الدينية في صلتها بالعلم ، هو القول بوجود شيء في أساس كل ناحية من نواحي الوجود ـ الطبيعي ، أو البيولوجي ، أو الاجتماعي ـ لا يمكن معرفته

ولقد أعطى سبنسر حياته لاثبات مبدأ التطور وبيان انطباقه على كل ناحية من نواحي الحياة ، واذا كان دارون قد طبق هذا المبدأ على الكائنات البيولوجية ، فقد انبرى سبنسر يطبقه على سائر المجالات الانسانية ، ومنها الدين •

نشأ سبنسر في أسرة دينية اشتغل أفرادها بالوعظ والارشاد ، وكانت لها شيعة التقوى ، واتصل أبوه بجماعة الميثوديزم ، ثم اتصل بالكويكرز ، وكلاهما من

النزعات الدينية المتطرفة . وقد أنهى هربرت كتابه « حياتي » بتأملات عن الدين ، وهذا راجع ولا ريب الى نشأته الدينية . ولكنه كفيلسوف ، ومؤمن بنظرية التطور . كان لابد أن يبين الصلة بين العلم والدين ، وكيف يمكن تفسير الدين في ظل نظرية مثل التطور

انه يرى أن كلا من العلم والدين معطى في التجربة فكلاهما من الوقائع الطبيعية . وليس الدين شيئا مصطنعا من نسيج الخيال ، بل واقع الأشياء هو الذي أوحى للانسان بفكرة الدين ، كما أن العلم ليس مصطنعا ولا خارقا للطبيعة . على الجملة لا يوجد شيء خارق للطبيعة ، لا في العلم ، ولا في الدين . وهو في سيرته التي دونها بقلمه يقرر أنه مؤمن بالسببية الطبيعية ، مكذب للخوارق ، وأن ما ننسبه الى خوارق الطبيعة انما يرجع الى الجهل بالأسباب .

ولكن على الرغم من هذا الايمان بالأسباب والمسببات ، فهناك أمور يعجز المرء عن ادراكها ، لأنها من باب ما لا يمكن معرفته ، وما لا يمكن التفكير فيه . مثال ذلك البحث في أصل العالم ، أموجود هو منذ الأزل ، أم أنه خلق نفسه ، أم أن هناك مبدعا خالقا أبدعه . فهذا مثال على قضية دينية لا يمكن البت فيها . وكذلك الحال في المكان والزمان ، علميا ، أيكون للمكان وجود خارجي ، أم هو شيء ذاتي .

والدين يخضع لقانون التطور كأية ظاهرة اخرى ونقطة البداية في جميع الأديان هي فكرة القرين ، أو الشبح . فالانسان يرى صورته على صفحة الماء أو قرينه ، ثم يعتقد أن هذا القرين لا يتلاشى ، ونشأ عن هذا الاعتقاد في وجود الارواح ، ثم تفرع عنها الطقوس والنظم الكهنوتية . والأرواح العليا تهيمن على السفلى ، ثم تطورت فكرة الأرواح المتعددة الى القول باله واحد . واذا كان العلم يعتمد على العقل فان الدين يعتمد على العاطفة والقلب ولابد للمجتمع من دين وطقوس واعتقادات .

ان ارجاع فكرة الدين الى القرين ، أو الأشباح من الأفكار التي قيلت في الفلسفة قديما ، وبخاصة عند الابيقورين ، ولا تفسر حقيقة الدين تفسيرا مقنعا . ثم ان سبنسر نادى بموجود أسمى ، ثم قال للناس انهم لن يتمكنوا من معرفته ، مما يفضي به الى لا أدرية مقنعة .

(د) هيكل والواحدية :

ارنست هيكل (١٨٣٤ ـ ١٩١٩) فيلسوف واحدي ، وعالم بيولوجي ، صاحب مؤلفات مشهورة ، منها « ألغاز الكون » . عارض ثنائية كومت ، وسبنسر ، لأن الانسان عند كومت يتميز من الطبيعة ، والمطلق عند سبنسر يتميز من النسبي . فهل يمكن اقامة وحدة بين جميع الأشياء بها تحل مشكلة العلم والدين ؟ .

يذهب هيكل الى ضرورة تطبيق العلم ، والعلم يقوم عنده على مبدأين ، الواحدية والتطورية . ذلك أن الموجود واحد ، وجميع الموجودات ذات طبيعة واحدة . ومن جهة أخرى الموجود متحرك ، وفيه مبدأ التغير ، والتطور . وفي ضوء الفلسفة العلمية ليس الانسان مركز الكون أو غايته ، بل حلقة في سلسلة الكائنات والتطور العام . وهناك فرق بين العلم والدين ، فالعقائد الدينية تقوم على التشبيه ، والخلق من عدم ، ويقوم العلم على الاتصال والخلق الطبيعي . ويعتمد الدين على الوحي ، على حين يعتمد العلم على التجارب .

وفي سنة ١٨٨٠ أعلن عالم يسمى ديبوا ريموند أن ألغاز الكون سبعة ، منها أربعة لا تحل وهي المادة ، والحركة ، والاحساس ، والحرية ، ومنها ثلاثة حلها العلم الحديث وهي الحياة ، والغائية ، والفكر واللغة . ولكن هيكل ناقش هذه الألغاز وبين أن العلم قادر على حلها كلها . حقا لم يصل بعد الى هذا الحل ، ولذلك يجب على العلم أن يعيش مع الأديان في سلام حتى يصل الى حل ألغاز الكون .

والواحدية التطورية هي التي تحقق الصلة بين العلم والدين . والفلسفة العلمية تفضي الى عبادة الحق والجمال والخير ، التي تحتل مكان ثالوث المسيحية . فالحق هو العلم ، والجمال هو الفنون الطبيعية ، والخير هو المحبة

والشفقة والمعونة وبذلك لن يحبس انسان الغد نفسه فى كنيسة ، بل يجعل الكون كله معبده . فالفلسفة العلمية بديل عن الأديان .

واذا نظرنا الى الأديان رأينا أنها تقوم على الثنائية ، فهناك الطبيعة والقوى الفائقة على الطبيعة ، وفى المذهب الغائى نجد الله والعالم ، وفى مذهب حرية الانسان ، ولكن الواحدية تلغى كل هذه الثنائيات . ثم تحل الأخلاق العلمية محل الأديان ، وبوجه خاص أخلاق التضامن . والتضامن يختلف عن المحبة فى المسيحية أو الاخاء فى الجمهورية ، انه همزة الوصل بين العلم والدين ، لأنه حقيقة علمية ، اذ هو ارتباط الكائنات بعضها ببعض .

لقد خيل الى هيكل أنه استطاع أن يوفق بين المطالب العلمية والمطالب الخلقية فى الانسان بالعلم وحده ، ولكن الحق أن الثنائية قائمة ولا يمكن القضاء عليها .

(هـ) المذهب النفسانى والمذهب الاجتماعى :

ان موجة التقدم العلمى التى بدأت منذ القرن السادس عشر بالرياضيات والفلك ، ثم بالعلوم الطبيعية والبيولوجية القائمة على الملاحظة والتجربة ، وكان لابد أن تمضى الى نهايتها فى القرن التاسع عشر بعلمى النفس والاجتماع . ذلك أن العلوم الطبيعية انما تقدمت لأنها أخذت فى اعتبارها « الظواهر » الطبيعية ، واستبدت

فكرة « الطبيعية » التى كان القدماء والمدرسيون يقولون بها من وراء الظواهر . كذلك بدلا من القول « بالدين » علينا أن نقف عند الظواهر الدينية » ، فيكون موقفنا علميا . ولم يكن هذا الموقف بدعة ، لأن هيوم رد مشكلة السببية الى ظاهرة نفسية ، وكذلك فعل اسبينوزا بمشكلة الحرية الانسانية . علينا اذن ملاحظة الظواهر الدينية كما تعطى فى التجربة ، ثم تفسير هذه الظواهر فى ضوء القوانين النفسية المعروفة .

والظاهرة الدينية تدلنا أن الانسان على صلة بموجود أعلى منه ، يتجه اليه ويرتقب منه تحقيق بعض رغباته . والناس المتدينون صنفان ، العاديون والصوفيون فالمتدين العادى يصدر عنه الفعل الدينى ، فيشكل أفكاره ، ويصبغ عواطفه ، ويربطه بصلة مع الموجود الأعلى . أما الصوفى فان صلته بالله فطرية فى نفسه ، يشعر بها ، ويرتب حياته عليها ، ثم يبدأ من هذه الصلة التى تحدد عواطفه ، ومنها الى أفكاره ثم الى أفعاله .

والظواهر الدينية لا تخرج عن أحد أمور ثلاثة ، اعتقادات ، أو عواطف ، أو طقوس . فالاعتقادات حقائق خارجية نؤمن بها ، مثل الاعتقاد بوجود الله والعواطف مزيج من خوف ، ومحبة وتعاطف ووجد ومحو ، وعلى الجملة أحوال تنقلب على المرء والطقوس هى العبادات الظاهرة والتى يؤديها الجسم ، وهى تقتضى تفسير الصلة بين النفس

والجسم . ولا حاجة في ضوء قوانين علم النفس الى شيء فائق على الطبيعة لتفسير هذه الظواهر .

ويزعم علم الاجتماع أن علم النفس بعيد عن امكان تفسير الظواهر الدينية ، لأنه ينظر اليها فرديا ، وبذلك تكون بعيدة عن العلم . أما علم الاجتماع فانه ينظر الى الظاهرة الدينية نظرا موضوعيا ، وعلميا بمعنى الكلمة . ذلك أن القول « بنفس » أو « بأنا » ، فكرة مبهمة ، على حين أن « المجتمع » موجود قائم وواقع ويمكن ملاحظته . والأساس الذي يعتمد عليه علم الاجتماع في بحث الظواهر الدينية هو فكرة الواجب ، أو المحرم ، أو المقدس . ومن فكرة المقدس يبحث هذا العلم العقائد والطقوس ، فالعقائد هي الواجب المقدس الذي يجعلنا نعترف باعتقادات معينة ، والطقوس مجموعة من العبادات ، وهي واجبة أو ملزمة يؤديها أفراد المجتمع .

ولكن المجتمع ليس مجرد اجتماع لأفراد مما يمكن ملاحظته وتسجيله ، وانما هو قبل ذلك طاقة متفجرة بالتقدم نحو مثل أعلى ينبعث من أعماق النفس الانسانية ويوجد في أساس كل تقدم اجتماعي الايمان ، والأمل والحب .

(و) النزعة الروحية .

المذاهب السابقة التي بدأت بأوجست كونت

– تعنى المذاهب الطبيعية – كانت تدعو الى سيادة العلم واخضاع الدين تحت جناحيه . أما الاتجاه الروحى الذى سساد فى القرن التاسع عشر فقد احتفظ للدين بكيانه ومبادئه واستقلاله ، ولكن كان لابد من تطهيره ونزوله الى ميدان الحياة ليثبت نفسه . وأبرز ممثلين لهذا الاتجاه الروحى ريتشل وأصحاب فلسفة الفعل والبرجماتيون .

وكان البرخت ريتشل (١٨٢٢ – ١٨٨٩) صاحب مدرسة تقوم على اثبات وجود الله لها بأحكام الواقع ، بل بأحكام القيمة . فالدين يختص بالاعتقاد لا بالمعرفة ، وانما ينشأ فساده بخلطه بعناصر دخيلة عليه سواء فلسفية أم علمية . لذلك يجب تطهير الدين من العناصر الدخلية والتى تعمل على افساده كالفلسفة والميتافيزيقا واللاهوت الطبيعى ، وأن تقطع الصلة بينه وبين المدرسية . والعنصر الثانى الدخيل على الدين هو « السلطة » فى الكاثوليكية ، وهذه يجب استبعادها .

ومن جهة اخرى يجب أن يتحقق الدين بكامل مفهومه ، وذلك بالرجوع الى الانجيل ، لأنه ينبع من أغوار الشعور . والحكم على صحة الدين من الانجيل انما يرجع الى اصطناع أحكام القيمة ، لا أحكام الواقع . فالعاطفة الدينية حين تلتمس فى الكتب المقدسة مدلولها وأساسها تصبح أوضح وأغنى ، وتقيم الدين على النفس والانسانية . وقد لقى مذهب ريتشل ترحابا كثيرا فى المانيا وخارجها .

وقد اعترض ولهلم هرمان تلميذ ريتشل أن التماس الشعور الديني من الكتب المقدسة وما فيها من صيغ ، فقال ان الصيغ اللاهوتية التي نصادفها تمثل تجارب دينية تخص صاحبها كالقديس بولس مثلا ، فاذا اصطنعناها واجريناها على السنتنا دون أن نجربها كانت عملا ميكانيكيا ونفاقا . والحل الذي يقترحه هرمان أن يفصل بين أساس الايمان وبين مضمون الايمان . فأساس الايمان ضروري ومتطابق عند كل شعور . ولكن المضمون يتغير بتغير الأفراد واختلاف تجاربهم .

أما في فرنسا فقد اتجه « سابانييه » الى تجنب كل تدخل من جانب العلوم الطبيعية وتأكيد استقلال الدين . وعنده أن الدين صلاة القلب ، والخلاص . ولكي يحيا المسيحي حياة دينية يحتاج الى أمور ثلاثة : وجود الله ، واستجابة الدعاء ، وحرية الرجاء . وهذه الأمور الثلاثة لا سبيل للعلم اليها .

واذا كانت البروتستانتية قد ألغت العنصر الثالث من المسيحية وهو سلطة الكنيسة ، فقد حان الوقت لالغاء العنصر الثاني وهو العقيدة اكتفاء بالعنصر الأول وهو الايمان ، لأن العقيدة ليست الا تأويلا رمزيا لمعطيات الشعور الديني ، وهو تأويل قابل للتعديل .

ولقد ذاعت الرتشلية ، ولقيت صدى واتباعا .

فالدين هو العاطفة ، هو الحياة الباطنة ، هو اتصال النفوس بالله . أما التمييز بين الايمان والعقائد فهو شبيه بالتمييز الجارى بين المعنى واللفظ ، بين النفس والجسم ، بين الفكر واللغة ولكن الاقتصار فى الدين على الايمان فقط لن يعفيه من الالتقاء بالعلم والنزاع معه . فما حدود العلم ؟.

(ز) العلم الحديث صرف النظر عن الأفكار القائمة فى أساس الموجود ، ولم يستبق سوى فكرة « العلاقة » ، فالقانون ذاته رابطة بين ظاهرتين . فالعلم يجرد الموجود من عناصره الذاتية والفردية وينظر الى العلاقات وما يمكن قياسه . ولكن هناك فى الحياة الانسانية أمورا لا ينالها العلم بمناهجه ، وهى الغايات التى ينصبها الانسان لنفسه ويتجه نحو تحقيقها ، ويرى أن هذه الغايات حسنة أو مؤثرة . ان التصرف الانسانى الذى لا ينظر الى الأشياء باعتبارها أمورا واقعة فقط ، بل تستحق أن تكون موجودة وأن يبذل الجهد لبلوغها لحسنها أو نفعها أو جمالها ، هذا التصرف لا يخضع للعلم .

والعلم الحديث يفسح المجال للاعتقاد الدينى ، لأنه لا يمكن أن يستبعد الدين ابتداء . والدين من ناحية أخرى لا يمكن أن يتجاهل المناهج العلمية وما بلغه من اكتشافات وبخاصة نظرية التطور . وكيف يتطور الدين ؟ انه يتطور من جهة الشعائر التى تعد فى حقيقة الأمر رموزا . والتطور الدينى اما أن يحتفظ بالشعائر الماضية على الرغم من

تصويرها لعصر سابق ، واما أن يغيرها لتلائم العصر الجديد .

وبعد : فان رأى بوترو أن الصراع ليس بين العلم والدين بمقدار ما هو بين الروح العلمية والروح الدينية . والروح العلمية لا تؤمن الا بالوقائع وتحاول تفسيرها فى ضوء التجربة ، واذا عجزت عن التفسير لا تلجأ الى القول بقوى خفية . ان مرد الروح العلمية الى العقل ، ومرجع الروح الدينية الايمان والعاطفة ، ولا غنى للانسان عن هذين الأمرين .

(ح) وبدلا من نقد المنهج العلمى وبيان حدوده ، لابد من ايجاد فلسفة جديدة تضم تحت جناحيها كلا العلم والدين . هذه الفلسفة الجديدة تعرف تارة باسم فلسفة الفعل ، وتارة أخرى باسم البرجماتية التى شاعت فى أمريكا . والحقيقة فى الفلسفة البرجماتية ليست فى مطابقة الحقائق الخارجية لتصوراتنا الموجودة فى الذهن ، بل الحقيقة هى ما يمكن أن يتحقق بالفعل فى أثناء الخبرة ـ وليست الحقيقة ثابتة منذ الأزل ولكنها تتغير فى المستقبل بحسب نجاحها ، وصياغتها لهذا المستقبل . والعلم عبارة عن « فعل » اى قوة فعالة ، لأنه يخلق المستقبل ويصنعه . فالعلم نفسه صانع المستقبل .

والايمان من جهة أخرى عبارة عن حالة باطنة ، وهو الذى يحقق نفسه ويصبح صادقا . وليس معنى ذلك أننا نأخذ أى عقائد كيفما اتفقت ، بل لابد من اصطناع العقائد

الملائمة ، وبعد ، فان البرجماتية منهج أكثر منها مذهب . انها منهج يؤمن بالفعل الانساني ، هذا الفعل الذي يعد همزة الوصل بين العلم والدين . لأن العلم انما هو رد الطبيعة الى رموز تجعل منها عجينة يستطيع الانسان أن يشكلها كيفما يشاء . والدين يتطلع الى أن يكون الانسان خليفة الله في الأرض ، فيكون تابعا متعاونا مع الله يحقق ارادته وينفذها .

وقد أفرد بوترو لوليم جيمس فصلا خاصا لدفاعه عن الدين بطريقة علمية وذلك في كتابه « تعدد التجارب الدينية » . ويذهب وليم جيمس الى وجود حاسة باطنة . وهو يرى أن الناس صنفان بالطبع ، المتفائلون والمتشائمون ، فالمتفائل يرى العالم محكوما بقوى خيرة ، والمتشائم يصاب بالوسوسة والهم والقلق . وقد درس جيمس الظواهر الدينية ، وقدم لها نماذج شتى ، وكل نموذج منها فريد في بابه لأنه يدل على تجربة شخصية . والظواهر الدينية — على الجملة — مستمدة من الطبيعة البشرية ، وليست مطابقة للظواهر المرضية . ان أشد الظواهر الدينية غلوا ، وهي التصوف ، عبارة عن شعور بالاتصال بالله ، ذلك الموجود الأسمى ، والصلاة هي التي تحقق هذا الاتصال . ولما كان الدين صلة بين الانسان وبين موجود أعلى وأعظم منه ، وكان الايمان بحقيقة هذا الموجود ، وحقيقة هذه الصلة ، ضرورية في صحة التدين ، لا جرم كانت هذه التجربة الايمانية كبيرة الأثر في حياة الانسان .

وكثيرا ما تؤدى الى الشفاء من بعض الأمراض العصبية . وليس هذا الضرب من الدين شيئا جاهزا ثابتا ، ولكنه شيء حي يعيش ويخلق نفسه ، انه أدنى الى روح التصوف .

والدين والعلم مرتبطان من جهة الغاية والمنهج والميدان ، اذ لهما نفس الغاية وهي سعادة الانسان وقوته ، ونفس المنهج وهو التجربة والاستقراء ، ونفس الميدان وهو الشعور الانساني .

صفوة القول : ليس النزاع بين الدين والعلم بمقدار ما هو كائن من الروح بمعارف يقينية ، والتأثير في الطبيعة ، والاتجاه مع الواقع ، والاعتماد على التجربة . وبهذه الروح يمكن تفسير كل شيء علميا . والروح الدينية تسود الفن والمجتمع والأخلاق ، وعلى الجملة كل ما يتميز بالقيمة ، ويعتمد على الايمان . ولكن الايمان له شروط ثلاثة يفقد بدونها أثره ، وهي الاسترشاد بالعقل ، وتوليد الموضوع ، والمحبة أو الحماسة . وهذه الشروط الثلاثة هي شروط للفعل الانساني ، ولكل فعل انساني بمعنى الكلمة ، نعني : الإيمان ، والمثل الأعلى ، والحماسة .

٥ ـ نماذج

(أ) الدين والفلسفة عند قدماء اليونان .

لم يكن الدين عند قدماء اليونان في صراع مع العلم بالمعنى الذي نقصده من العلم اليوم ، أي مجموعة المعارف

الوضعية التي حصلهـا الانسان ، بل كان في نزاع مع الفلسفة ، وفي التأويل العقلي للعالم والحياة ، أو لمعتقدات الناس الموروثة . ولقد نشأت الفلسفة في بعض وجوهها من الدين نفسه . ولم تقم على خدمة الدين في اليونان هيئة منظمة من رجال الكهنوت ، مما ترتب عليه أن الدين لم يظهر في ثوب من العقائد الثابتة الواجبة ، ولم يفرض الا طقوسا ، أي أفعالا ظاهرة تشغل جزءا من حياة المواطن . وكان الدين الى جانب ذلك حافلا بالأساطير والخرافات التي تبعث الخيال ، وتهذب العقل ، وتدعو الى التأمل . ولكن ما مصدر هذه الخرافات ؟ يعتقد بعض الباحثين أنها ـ من غير شك ـ وحي أسدل عليه ستار النسيان (ص ١ ـ ٢) .

(ب) الدين والعلم في رأي ديكارت .

يفرض ديكارت مبدأ الاستقلال المتبادل بين الدين والعلم . فميدان العلم الطبيعة ، وموضوعه استغلال القوى الطبيعية ، وأدواته الرياضـة والبحرية ويختص الدين بمصائر النفس في العالم الآخر ، ويعتمد على اعتقـادات معنية في غاية البساطة ، ولا صلة لها بدقائق اللاهوت المدرسي . فلا مضايقة بين العلم والدين ولا سلطان لأحدهما على الآخـر ، لأن نموهمـا الطبيعي والمشروع لا يجعلهمـا يلتقيان . ولقد مضى الزمن الذي كان الدين يفرض نتائجه

على الفلسفة التى كان من واجبها أن تبرهن على تلك النتائج وتشرح أصولها كما كان الحال فى العصر الوسيط فلكل من العلم والدين استقلاله الذاتى .

(ص ٢٦)

(جـ) روسو .

استمد روسو تعاليمه من حياته الباطنة وخلقه وعبقريته أكثر مما استمدها من قراءاته أو تأملاته الفلسفية وكانت هذه التعاليم واضحة فى نظره وضوح الحقائق التجريبية مما جعله يرى أن العاطفة فى ذاتها مبدأ مستقل ومطلق لا يستمد بأى حال من المعرفة العقلية ... وقد كانت الانسانية فى الأصل تسترشد بالطبيعة ، وبالغريزة وهى مبدأ الحياة ، حتى غوت فاكلت من ثمار شجرة العلم ، ومن العقل المتعجرف الذى يعتقد أنه صاحب السلطان .

(ص ٢٦)

(د) العلم والدين فى القرن ١٩ .

خلاصة القول : كانت الصلة بين الدين والعلم كما قامت خلال القرن التاسع عشر عبارة عن ثنائية حاسمة : فلم يعد العلم والدين مظهرين ـ متماثلين على الرغم من

قيمة كل منهما الذاتية ـ لموضوع واحد هو العقل الالهى ، كما كان الأمر قديما فى الفلسفة اليونانية . ولم يصبح العلم والدين حقيقتين يمكن التوفيق بينهما كما كان الحال عند المدرسيين . ولم يعد العقل ضامنا مشتركا لهما كما هى الحال عند العقليين المحدثين ، فكلاهما مطلق على طريقته ، وكلاهما متميز عن الآخر من كل وجه ، كما تميزت ملكتا النفس : الذكاء والعاطفة ، بحسب علم النفس السائد فى ذلك الوقت ، والتى اليهما يرجع العلم والدين .

(ص ٣٥)

(هـ) دين الانسانية عند أوجست كونت .

فاذا كان هناك دين يحقق بطريقة نهائية يقينية الفطرة الدينية الأولية التى لا غنى عنها فى الطبيعة البشرية ، فهو المذهب الوضعى أو دين الانسانية .

ليس هذا الدين تجريدا ، وانما هو حياة : انه النمو الفعال للايثار والمحبة . ولكن المنهج الذى يجب اتباعه فى اقامة هذا الدين بطريقة فعالة له أهمية عظمى . وقد كانت المحبة موضوع الأديان السابقة أيضا ، ومع ذلك قضى على تلك الأديان فى صورتها التقليدية ، اذ لا حياة لأى مؤسسة لا تحترم قانون شروط الوجود .

(ص ٥)

ما قيمة هذا المذهب ؟ وأى درس نستطيع أن نستخلصه منه ؟

يمكن تعريف مذهب كومت الوضعى بانه التركيب بين العلم والدين تركيبا يتم بوساطة فكرة الانسانية ، فقد أصبح العلم بعد خضوعه لحاجات الانسان مفضيا الى الدين الذى يستطيع وحده أن يضمن تحقيق الغايات التى يقدم العلم وسائلها . ومن جهة أخرى حين وجد الدين فى الانسانية ذاتها الموضوع الملائم لعبادته أخذ يؤدى عمله دون أن يخرج من عالم الواقع الذى يدور العلم فيه .

(ص ٧٣)

(و) سبنسر .

ينتمى سبنسر الى أسرة من الوعاظ والمعلمين ، وكان للدين عندهم المقام الأول . وهو يتصل من جهة أمه بأسرة فرنسية من الهيجونوت هى أسرة برتيل . وكان جده الأول جون برتيل صديقا شخصيا لجون وسكى مؤسس مذهب المتوديزم (٣) الذى اضطلع بنفسه بنشره . وكانت أمه هاريت هولمز شديدة التقوى ، وكانت تتبع بدقة برغم انتسابها للمنهجين طقوس الكنيسة الأنجليكانية . وكان جورج سبنسر والد هربرت يهتم اهتماما شديدا بالمذاهب

(٣) المذهب المنهجى .

الدينية ، فاتصل بالمذهب المنهجى ثم انفصل عنه ، لأنه لم يجد فيه الديانة القلبية التى كان يشعر بالحاجة اليها ، فاتجه نحو الكويكرز . وقد فهم الدين على أنه نفور صادق من الشعائر والاحتفالات الكنسية . ولم يكن هربرت سبنسر بعيدا عن الاستجابة لهذه التأثيرات .

(ص ٨٠ ـ ٨١)

آخر كلمة تعلنها فلسفة هربرت سبنسر هى أننا اذا نظرنا الى أساس جميع الأشياء وأصلها ، وجدنا قطعا شيئا « لا يمكن معرفته » . وهو مبدأ يستحيل علينا استبعاده ، كما يمتنع علينا بلوغه . وهذا المذهب يربط بين العلم والدين .

ومن الخطأ الاعتقاد أن الدين شىء مصطنع نسجه العقل من أوهام خياله اتفاقا . فالأشياء نفسها هى التى أوحت للانسان بالدين ، فكان بذلك الاستجابة التلقائية لفكره وقلبه وعقله ، ردا على التأثير الواقع عليه من العالم الخارجى . ومن جهة أخرى ليس العلم كذلك بدعة مصطنعة وكأنه شىء خارق للطبيعة . للعلم والدين اذن أصل واحد ، اذ يحصل كل منهما طبيعيا فى العقل البشرى من اتصاله بالعالم .

(ص ٨٢)

ان نقطة البداية فى الأديان تبعا للترتيب التاريخى

هى الواقعة الأولية التى تتعدد فينتج عنها صور مختلفة لا نهاية لها ليست شيئا آخر سوى ما يسميه سبنسر بالقرين . فالانسان يرى على صفحة الماء صورته او قرينه ، وكذلك يرى نفسه فى الرؤيا ، كما يرى فيها صورة غيره من الناس ... وفى الانسان نزعة طبيعية تميل به الى الاعتقاد أن القرين لا يتلاشى ، كل ما فى الأمر أنه ينصرف ، ولعله يظهر مرة أخرى فى حلم مستقبل ، حتى اذا خانت منية المرء سهل عليه الاعتقاد بأن هذا الأنا الغامضة لا تزال باقية ، وأنها تظل كثيرا او قليلا شبيهة بنفسه ... ومن هنا نشأ الاعتقاد فى الأرواح والكائنات الفائقة على الطبيعة ، وفى قوتها وتأثيرها فى حياة الانسان .

(ص ٩٠)

(ز) هيكل والواحدية .

لا يمكن أن يعتبر مذهب أوجست كونت ولا مذهب هربرت سبنسر مما يحقق للعقل حالا ثابتة من الاتزان . اذ بعد أن كان الانسان ملك الطبيعة ، ويد الله تعالى وعونه ، أصبح فى الكون الانسانى البحت الذى يقول به أوجست كومت مكسور الجناح محصورا . أما المثالا يمكن معرفته عند سبنسر ، فلا يمكن أن يظل داخل الحدود التى أراد تقييده فيها فان كان موجودا ، لا جرم أن ينازع الى

الظهور ، ويطبع عالم الواقع بطابعه . والمذهبان الى ذلك مسرفان فى الثنائية .

(ص ١١٩)

ان الفلسفة المستخلصة من العلم تتلخص فى كلمتين : الواحدية والتطورية فمن جهة الموجود واحد ، وجميع الموجودات ذات طبيعة واحدة ، وليس الخلاف بينها الا فى الدرجة ، أى كميا . ومن جهة أخرى ليس الموجود لا متحركا . بل فيه مبدأ التغير هذا التغير الذى يعد فى ذاته ميكانيكيا بحتا ، وخاضعا لقوانين ثابتة ، هو أصل تعدد الموجودات واختلافها ، والتى تعد بدورها حادثة عن خلق طبيعى خالص . ومن مشارف هذه الفلسفة يجب على العلم منذ الآن أن يبحث المسائل التى يشتغل بها الدين .

(ص ١٢٤)

(ح) مذهب الاجتماعيين .

يرى علماء الاجتماع أن علم النفس لا يكاد يتمثل الدين حتى يفقره ، ويقطع أوصاله ، ويفصل منه ما فيه من عنصر خاص جوهرى . ذلك أن علماء النفس يتمسكون بالجانب الشخصى من الظاهرة الدينية ، ويجدون فى التصوف المظهر الدينى بالذات . ولكن الدين الباطن فى رأى أعلام علماء الاجتماع ليس الا صدى غامضا غير أمين

للدين الاجتماعي المرتسم في ضمائر الأفراد . فالصوفي رجل هوى أو تأمل ، يلائم بين الدين وبين حياته أو فلسفته الخاصة . ولا يجب أن نبحث الدين في صوره المشتقة المعدلة للشخصية المتقلبة ، اذا شئنا حقا أن نجعله علما ، بل يجب أن ننظر اليه في حقيقته الملموسة الأولى العامة الموضوعية . لا يجب علينا أن نستأنس بحالة الخالين والشواذ والفلاسفة والملاحدة .

(ص ١٨٠)

(ط) الرتشلية .

تشتمل الديانة الكاثوليكية على عناصر ثلاثة هي : الايمان ، والعقيدة ، والسلطة ، حتى اذا جاءت البروتستانتية وسعت الى اعادة المسيحية في نقائها البدائي ، ألغت السلطة باعتبار أنها مبدأ مادي وسياسي بحت ، ولكنها تركت العقيدة قائمة . وقد حان الوقت أن تترك العقيدة ذاتها تهوى باعتبار أنها موضوع للاعتقاد الواجب . أما العنصر الديني بمعنى الكلمة فهو الايمان ، فحيثما يوجد الايمان يوجد الدين .

(ص ٢١٨)

(ى) خاتمة :

لو اقتصرنا العين على الانفعالات والعبارات لجعلنا منه فكرة ناقصة بل مجردة ، لا كما يبدأ العين من العاطفة ينتهي اليها كذلك ، لأن المعتقدات والطقوس تستهدف التعبير عن العاطفة كما تستهدف تدعيمها . ان نسيج العاطفة لديه بدائرة كلما ابتعدنا عن نقطة في محيطها عدنا اليها .

(ص ٣٦٠)

رقم الإيداع بدار الكتب ١٩٩٤/٥٣٨١

ISBN — 977 — 11 — 3988 — 8